يوسف صديق (١)

إنا وهبنا للجهاد نفوسنا
لا نبتغى رتبا ولا أطماعا
والمؤمنون المخلصون يزيدهم
ظلم الحوادث شدة وصراعا
يوسف صديق

ثمة أحداث جسام ترتبط بأشخاص عظام. بحيث لا يمكن الحديث عن الحدث إلا بالحديث عن الشخص فثورة يوليو مثلا لا يمكن الحديث عنها دون الحديث عن خالد محيى الدين ويوسف صديق وغيرهما من الصناع الحقيقيين للثورة.

ويوسف صديق فلاح ابن فلاح، ضابط ابن ضابط. فى ١٩١٠، ولد يوسف لأسرة عريقة فى قرية زاوية المصلوب مركز الواسطى بنى سويف. الأب ضابط فى الجيش يفيض حماساً مصرياً ضد تحكم الإنجليز فى الجيش المصرى، ويصطدم بالقادة الإنجليز الذين كانوا يتحكمون فى فرقته العاملة فى السودان، ويتوفى الأب ويوسف لم يزل فى عامه الأول، ويكفله خاله اليوزباشى محمد توفيق على وهو أيضا ضابط ثائر على الإنجليز وانتهى به الأمر إلى أن ألقى باستقالته فى وجه الجميع ليبقى مزارعا فى زاوية المصلوب. ولم ينس يوسف أبداً الحكايات والحوارات التى ظل خاله يرددها على مسامعه طوال فترة طفولته وشبابه عن الإنجليز واضطهادهم لضباط الجيش المصريين، ورغبتهم فى الاستمرار فى التحكم فى الجيش وقياداته واضطهاد أى ضابط وطنى.

ونواصل رحلتنا مع يوسف.

١٩٤٤ يتم دراسته الإبتدائية ثم يرحل إلى القاهرة ليصبح طالبا فى الخديوية الثانوية فى زمن تفجرت فيه مظاهرات عنيفة ضد الاحتلال وعملاء الاحتلال. ويوسف ينغمس فى ذلك كله.

١٩٣٠ ينهى يوسف دراسته الثانوية، يتذكر الثأر الكامن فى أعماقه ثأر أبيه وخاله، وثأر مصر، وينضم إلى المدرسة الحربية.

١٩٣٣ يوسف ضابطا فى الجيش.

ويتميز الضابط الشاب بحماسه وجديته وأيضا بأنه شاعر القوة التى يخدم فيها. وعندما يصدر قرار ظالم بإحالة الأميرالاى سليمان عبد الواحد شبل إلى الاستيداع يقيم يوسف وزملائه حفل وداع ويدهش الجميع عندما يشدو الضابط يوسف صديق بشعر ثورى شجاع فيخاطب المحتفى به قائلاً

يا صاحب القلب الكبير تحية
فلقد بدأت ولا أقول وداعا
حررت من قيد الوظيفة فإنطلق
حرا، وأطلق للكفاح شراعا
عار الوظيفة أن تضام بها إذا
كنا الرجال ولم تكن أتباعا
ونفوس أهل الحق تأبى حره
وكريمة أن تشترى وتباعا

ويتحدث يوسف صديق عن مسيرته قائلاً «بدأت بالاتصال بالإخوان لكننى تركتهم لجمودهم العقائدى الذى لا يرضى ما أخذت به نفسى من ثورة ولم يدم إتصالى بهم أكثر من شهور. ثم اتصلت بالشيوعيين وكنت مقدراً لدور الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت علاقتى الحزبية مع الضابط أحمد حمروش أحد ضباط المدفعية فى «حدتو» وقد أعجبنى فى الشيوعية أنها تغرس حب العدل فى النفوس وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس فهى لا تفرق بين الناس لأنسابهم ولا أحسابهم وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، ولم أشعر ولو للحظة أن تطبيق هذه المبادئ يتعارض مع عقيدتى الدينية. فقد داس الإسلام تيجان الأباطرة والاكاسرة بأقدام الشعوب (أحمد حمروش – شهود وثورة يوليو – صـ ٤٣٣) . وفى حوار له معى حكى لى «بعد اعتقال عديد من قيادات حدتو فى نهاية الأربعينيات كلفت بطباعة المنشورات فى بيتى بثكنات الضباط فى العباسية باعتبار أن هذا مكان آمن من هجمات البوليس.

وكنت أكتب البيانات بخطى على البالوظة ثم أطبعها أنا وعليه (زوجته المناضلة علية توفيق) ، وكنت أتأفف وأسأل عليه «هى الثورة حتتعمل كده؟، تبتسم عليه وأبتسم ونواصل العمل» (محضر نقاش أجريته فى ١٩٦٨/٨/٣).

لكن يوسف يعبر عن رأيه فى مدى إمكانية تحرير الوطن بالبيانات قائلاً:

ضعوا الأقلام وامتشقوا الحساما .. فرب السيف قد حمل الوساما

وقولوا للذى يرجو خلاصا .. بتنميق الكلام كفى كلاما

ومن نادى بغير الجيش يهذى .. وعن نور الحقيقة قد تعامى

ولعلها المحاولة الأولى لإدارة صراع فكرى داخل تنظيم شيوعى .. شعراً

ويمضى يوسف صديق فى أحاديثه الثائرة فى ميسات الضباط بما لفت أنظار عبد الناصر إليه وبدأ الأتصال به، فأرسل إليه الضابط وحيد رمضان وكان تلميذا له فى الكلية الحربية ليحذره من أن «الحرس الحديدى» يرصد اجتماعات يعقدها فى منزله. وبعدها عرض عليه وحيد رمضان الانضمام للضباط الأحرار وتأخر رد يوسف صديق حتى يستأذن التنظيم وتلقى الموافقة بشرط ألا يكشف عن عضويته بحدتو. والمثير للدهشة أن عبد الناصر لم يعرف أن يوسف صديق شيوعى إلا بعد الثورة. وبعد أن أصبح يوسف عضوا فى مجلس قيادة الثورة.

ونواصل مع الفارس الذى اسماه زملاؤه رب السيف والقلم. وهو ذات الأسم الذى أطلق على البطل محمود سامى البارودى أحد قادة ثورة عرابى.